مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 14 / العـــدد: 01 (2024)، ص 739-748

هاجس[1] التأصيل النقدي لدى عبد الملك مرتاض
بين وعي التراث وطموح الحداثة

أ.د. عقاق قادة*

جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس

(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/05/01 تاريخ القبول: 2024/06/07

ملخص:

يتميز المسار النقدي للأستاذ عبد الملك مرتاض بكثير من الغنى والسعة والثراء، ناهيك الامتداد الزمني الشاسع لهذا المسار، والتعدد المعرفي الثر الذي يؤطره- الجامع بين أصالة التراث وعمقه وحداثة المعرفة الوافدة والمتطورة باستمرار- المستثمر لبعض ما تركه العلماء العرب القدامى، والمسترفد لبعض منجزات الحداثة الغربية، والمكّيف لها مع الذوق العربي الأصيل، والطرح العربي الخالص، يتبدى ذلك ، بصفة خاصة، في مؤلفاته الأخيرة التي اغتدت تمور بتلك الترعة النقدية التفاعلية التي تزواج بين مكتسبات الإرث المعرفي العربي القديم ومعطيات المعرفة الغربية ذات التوجه الحداثي- من تماســـك فكري وفعالية علمية ودقة منهجية ووجاهة معرفية . مما يجعل منه مسارا تتعذر الإحاطة به في حيز كهذا.

لذلك سنقتصر، في هذا المقال، على إثارة بعض القضايا الجزئية، وطرح بعض الإشكاليات العامة، وتحديد بعض المعالم الرئيسية التي تتعلق بقراءة الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض التي تريد أن تكون عربية الذوق أصيلة الطرح، فيما هي منفتحة على آفاق الحداثة الغربية ومعطياتها المتراكمة والمتغيرة باستمرار.

الكلمات المفتاحية: – قراءة، نقد، سيميائية، بلاغة، تراث عربي، حداثة غربية.

Abstract:

The critical trajectory of Professor Abdulmalik Martad is characterized by richness, breadth, and depth, not to mention its extensive temporal scope and the diverse intellectual richness that frames it - combining the authenticity and depth of heritage with the continuous influx and advancement of Western knowledge. It represents an investment in some of what the ancient Arab scholars left behind, drawing from the achievements of Western modernity, adapting them to authentic Arab taste and pure Arab discourse. This is particularly evident in his recent works, which have flourished under the auspices of this interactive critical stream, marrying the gains of ancient Arab intellectual heritage with the insights of Western knowledge oriented towards modernity - displaying intellectual coherence, scientific efficacy, methodological precision, and cognitive sophistication. This makes it a trajectory that is difficult to fully encompass in such a space.

* - أ.د. عقاق قادة.

Therefore, in this article, we will limit ourselves to raising some partial issues, posing some general questions, and delineating some key features related to Professor Abdulmalik Martad's readings, which aim to maintain an authentic Arab sensibility in discourse while remaining open to the horizons of Western modernity and its constantly evolving and accumulating data.

Keyword phrase: Reading, Criticism, Semiotics, Rhetoric, Arab heritage, Western modernity

مقدمة منهجية*:

لا شكَّ في أن مشروع الأستاذ الدكتور عبد المالك مرتاض في مجال البحث والدراسة والتأليف العلمي والأدبي، قد لا يحتاج إلى تعريف وتشخيص بقدر ما يحتاج إلى إعمال نظر وتدبر، وتتبع وتأمل، ومساءلة، بغية تعميق الاستفادة منه، والاستنارة بإشراقاته المتعددة. إنه مشروع أصيل يُعلن عن نفسه من خلال منجزاته المتراكمة والممتدة على مدى أكثر من ستة عقود من الزمن. منجزٌ ثري ومتنوع، أقنع القراء والمتتبعين والمهتمين والمختصين على السواء بما لقي صاحبه فيه من عنت وجهد ومثابرة قل نظيرها، وتصحيحات وتطويرات تُقدِّم أبلغ الأدلة وأكثر الحجج مصداقية على تميز هذا المشروع، وخصوبته وغناه، وفرداة صاحبه ومشروعيته العلمية بين الباحثين المعاصرين، لما يتميز به طرحه- وبخاصة في مؤلفاته الأخيرة التي اغتدت تمور بتلك الترعة النقدية التفاعلية التي تزواج بين مكتسبات الإرث المعرفي العربي القديم ومعطيات المعرفة الغربية ذات التوجه الحداثي- من تماسك فكري وفعالية علمية ودقة منهجية ووجاهة معرفية .

إن مسارا نقديا بهذا الغنى والسعة والثراء، وبهذا الامتداد الزمني الشاسع، وبهذا التعدد المعرفي الثر- الجامع بين أصالة التراث وعمقه وحداثة المعرفة الوافدة والمتطورة باستمرار- المستثمر لبعض ما تركه العلماء العرب القدامى، والمسترفد لبعض منجزات الحداثة الغربية، والمكيف لها مع الذوق العربي الأصيل، والطرح العربي الخالص، لهو مسار تتعذر الإحاطة به في حيز كهذا.

لذلك سنقتصر على إثارة بعض القضايا الجزئية، وطرح بعض الإشكاليات العامة، وتحديد بعض المعالم الرئيسية- دون الدخول في التفاصيل التي تستحق دراسات مستقلة ومتأنية- التي تتعلق بقراءة الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض التي تريد أن تكون عربية الذوق أصيلة الطرح، فيما هي منفتحة على آفاق الحداثة الغربية ومعطياتها المتراكمة والمتغيرة باستمرار. يتبدى هذا- كما سبق القول- من خلال نزوعه الدائم للجمع بين رافدي التراث والحداثة، سواءٌ أفي مقارباته النقدية المتعددة للنصوص الأدبية بمختلف أجناسها[2]، أم في تحديداته المنهجية، أم في ضبطه المصطلحي.

1. موضعة المشروع ضمن إطاره الثقافي العام:

وإذا كان من واجبنا، أو بالأحرى من حقنا في بداية هذه الورقة البحثية موضعة مشرع أستاذنا الدكتور عبد المالك مرتاض، ووضعه في إطاره الحضاري العام ونسقه المعرفي الخاص، فإننا لن نجد أحسن من موقعته ضمن ذلك التوجه الحضاري الذي لا يتنكر للذات- ممثلة في التراث- ولا ينغلق على ثقافة الآخر الوافدة[3]، من خلال ذلك الحوار المنهجي الذي يُقِيمُه بين القديم والجديد، ومن خلال ذلك التأصيل النظري والممارسة التطبيقية التي يقابل فيها بين بعض إشكالات التراث وبعض مسائل الحداثة المنهجية، كما فهمها وصاغها، مقترحا في خِضَّم ذلك مفاهيم جديدة تُكمِل النقص الموجود وتملأُ الفراغَ المعاين... وهذا بغية تأسيس بدائل معرفية، وصياغة نظرية- أو نظريات- نقدية وميتانقدية[4] تكون قادرة على خلخلة التفكير الأدبي السائد، وملامسة كل، أو بالأحرى جل مستويات التحليل النصي وتأويلاته، سواء في علاقته بذاته كنظام لغوي رامز، أو في علاقته بمختلف الظواهر والأنظمة الأخرى المحيطة والمحايثة والموازية (كالمجتمع والتاريخ والايديولوجيا والثقافة السائدة...) عبر شبكة مناهجية متعددة ومتجانسة.

2. هاجس التأصيل المعرفي والتركيب المنهجي:

وفي إطار ما تمت الإشارة إليه أعلاه، ومن أجل تحقيق ذلك نجده، يميل في مقارباته النقدية- المتأخرة نسبيا- إلى التركيب المنهجي المفتوح والمنتشر، عوض القراءة المغلقة والمتقوقعة ذات المنهج الواحد، مُزاوِجًا بين التراث البلاغي القديم ومعطيات السيميوطيقا الحديثة، وناهضا في خضم ذلك ومعمقا لحوار نقدي ومعرفي بين ما أنجزه التراث البلاغي واللغوي والنقدي العربي وبين تلك التصورات والآليات الحديثة التي يقدِّمُها النسق المعرفي الغربي؛ حيث نجده يقول بصدد هذه المزاوجة وهذا الانفتاح، "من أجل ذلك وعلى الرغم من أن مسعانا في هذا النص، يحاول أن يتموقع في إطار السيميائيات، فإننا مع ذلك لم نر بأسا من التحلل من هذا التقوقع والانتشار خارج فضائه كلما رأينا ضرورة لإشباع النص بالتحليل"[5]، ليردف قائلا: "... وقد رأينا أن نتوسع في مفهوم التشاكل لدى التطبيق لينتقل من مجرد اختبار لوجه واحد من القراءة إلى شبكة منهجية ذات قابلية للتعمق بين النص واستخراج كل ما نود استخراجه منه، وهو مسعى جعلنا نتظاهر ببعض الأدوات البلاغية[6] التي على الرغم من أنها أُدمِجت في نظرية الخطاب الآن إلا أن الحديث عنها في التنظيرات السيميائية يعني أنها لا تزال تفرض نفسها في بعض المواقف وخصوصا لدى تحليل نص أدبي تحليلا أسلوبيا سيميائيا"[7].

ويبدو الباحث على وعي كبير بهذا النهج التركيبي الذي تصدر عنه قراءته، والذي يختلف في جوهره عن الإجراء التكاملي كما يشيع في بعض الدراسات النقدية المعاصرة، ولذلك نراه، ومخافة أن يُتَّهم بالتلفيقية يؤكد قائلا:" على أننا لم نسقط في هذا الفخ إلا نادرا وبشيء كامل من الوعي"[8].

انطلاقا من هذا التصـــور المنهجي المركب، نجده يتبنى كلمة (قراءة) عوض كلمة (نقد)؛ لأن هذه الأخيرة في رأيه لا تعدو كونها "مجرد قراءة شخص محترف لنص أدبي ما، والأدوات التي يصطنعها في فهم النص، أو قراءاته، أي تأويله هي (التي) تحدد معالم التحليل الذي ينشأ عن مسعاه الأدبي[9].

ولكي يعطي الباحث لهذا التصـور المنهجي المتشـابك مشـروعيته العلمية ووزنه الحضـاري ومصـداقيته المعرفية، نراه يتكئ على بعض الأسـانيد التراثية قائلا: "إن من المكابرة الزعم بأن المعاصـرين اليوم وحدهم هم الذين اهتدوا إلى إشكالية القراءة السيميائية بكل إنجازاتها اللسانية وعلى تعدد حقول تأويلاتها المستكشفة"[10]؛ ذلك كما يتابع "بأننا نصـادف قراءات أدبية تكاد تندرج اندراجا تاما في حقل السـيميائية ولنضـرب لذلك مثلا، لمن كان مفتقرا إلى أمثال تضـرب له، بأعمال تراثية كشـرح المرزوقي لنصـوص حماسـة أبي تمام، وكشـرح أبيات المتنبي لابن سـيده، وبدرجة أدنى مقامات الحريري[11]، مؤكدا أنه "إذا كانت محاولات هؤلاء تقوم خصـوصـا على التشـاكل النحوي وهو أحد فروع التشـاكل السـيميائي، كما ورد في تنظيرات غريماس فإن هناك ملامح ترقى إلى ما فوق ذلك هنا وهناك"[12] في هذا التراث العربي العريق.

ولعل هذه الاسـتراتيجية المزاوِجة بين التأصـيل المعرفي المنغرس بعمق في تربة التراث وبين التحديث المنهجي السـابح بحرية في فضـاءات الحداثة الغربية، والذي يتبدَّى بوضـوح في تلك المقابلات العديدة التي يُقيمها بين بعض منجزات التراث اللغوية والبلاغية والنقدية وبعض الطروحات الغربية (الأسلوبية والسيميائية خصوصا)[13]، هي التي جعلته يمتح من معين التراث فيما هو لا يفتتن بصـرعات الحداثة الغربية على اعتبار أنها الخلاص والمنتهى. ولذلك نراه يؤكد بجرأة وثقة بأن "هذه الأدوات الجديدة التي تُطالعنا بها كلَّ يوم العلوم الإنسانية، ليست غاية، فذلك تدبيرٌ مُفلسٌ في رأيه، وإنما هي مجرد وسـيلة "مُطوِّرة لرؤيتنا إلى النص، ومُكمِّلة للنقائص التي كانت تعثر مسـاعينا في التحليل للاقتراب بأعمالنا إلى نحو الكمال"[14]، ولذلك فلا ينبغي لها-أي هذه الأدوات الجديدة- كما يجترح "أن تستأثر بالتفرد والتربع على عرش المنهجية"[15] لدينا.

من هذا المنطلق الواعي الذي يبتغي الكمال في مقاربة الأعمال الأدبية، ويهدف للولوج إلى أعماق النص الأدبي من خلال ملامسـة جميع مسـتوياته الفنية والقبض على معظم مركباته اللسـانية والإيديولوجية والجمالية والنفسـية[16]، نراه يدأب في تعامله مع النصـوص على محاولة المزاوجة أو المثالثة أو المرابعة بين جملة من الأجناس باصـطناع القراءة المركبة التي لا تجتزئ بمنظور أحادي إلى النص[17]، لأن ذلك المنظور الأحادي-في رأيه-مهما كان كاملا دقيقا فلن يبلغ بالتحليل مداه، ولن يظفر من النص بكل ما فيه.

ربما لهذا السبب، نجده يُشفِع العناوين الرئيسية لبعض دراساته الأخيرة، بعناوين فرعية تنفي عنها أحادية المنهج وتؤكد هذا التراكب المنهجي المتبع وتدلُّ عليه[18]. إن هذا الازوِرَار- الذي يُبديه الباحث- عن التمسـك بتقنيات منهج واحد على أسـاس أنه هو وحده الأليق والأجدر أن يُتَّبع من منطق تعصـبي، والذي يراه اتجاها

أخرق ومســـعى أخطل[19]، لكونه ينفي عن الأدب جماليته، ويجنح به نحو الجمود والتقوقع، إن هذا الازورار هو ضرورة معرفية تجد سندها القوي في تراث العرب وحداثة الغرب على حد سواء؛ حيث تميل الاتجاهات المعاصرة، كما يؤكد "إلى التركيب المنهجي لدى قراءة نصها مع محاولة تجنيس التركيبات المنهجية حتى لا يقع السقوط في فخ التلفيقية[20]؛ من ذلك مثلا تلك المزاوجة التي أقيمت بين البنيوية والاجتماعية، والتي ولدت بموجبها (البنيوية التكوينية) فخلصـــت البنيوية في فجاجتها وميكانكيتها، وأنقذت أيضـــا الاجتماعية من طغيان المضـــمون على تحليلاتها، واستثاره التام باهتمامها.

هذا فضـلا عن أن معظم المناهج التي تمور في السـاحة النقدية "موروثٌ بعضُـها عن بعض وقائم بعضـها على بعض فلا البنيوية ولا النفسانية، ولا السيميائية ولا الأسلوبية نفسها، تستطيع إحداهن أن تزعم أنها ناشئة من عدم، وأن كل أدواتها التقنية، ومصطلحاتها المفهوماتية جديدة. فاللسانيات قامت على جهود النحاة وفقهاء اللغة وحتى المعجمين، كما أن الأســلوبية على الرغم من أنها فرع من اللســانيات تصــنيفا، إلا أنها قامت على أنقاض البلاغة بفروعها الثلاثة: البيان والمعاني، والبديع، ولم تقم البنيوية إلا على جهود الشــكلانيين الروس وجهود دي ســوســير. على حين أن الســيميائية هي خليط من اللســانيات، والنحويات وربما البلاغيات، لأن التشــاكل (Isotpie) بأنواعه، الذي اهتدى إليه غريماس لا يعدو أن يكون تجسـيدا لمسـاع ذهنية كانت تتردد على ألسـنة البلاغيين، وكل ما في الأمر أن المساعي المعاصرة تتسم بتقنيات أدق، ومنهجية أكثر صرامة"[21].

كما أن هذا النفور من أحادية المنظور القرائي وانغلاقه، والنزوع نحو التراكيب المنهجي والإيمان المطلق بعطائية النص وانفتاحه، والذي يتبناه الباحث بوعي عميق ويدافع عنه بحماس، يجد ســنده القوى: أيضــا- كما ســبقت إليه الإشــارة أعلاه- في التراث العربي، حيث نجد العرب كما ينص "من الأمم التي عملت بفتح النص وعطائيته بحيث نُلفِيهم يولعون إيلاعا شديدا ببعض النصوص كما حدث مثلا لشعر المتنبي الذي وصلنا من التراث أكثر من ثلاثين قراءة أشــهرها قراءات ابن الأثير وابن جني وابن ســيده... وأبي حيان التوحيدي والشــريف المرتضي"[22] وغيرهم، ومثل هذا أيضا يُقال في حماسة أبي تمام ومقامات الحريري على نحو ما. ومثل هذه المساعي في رأي الباحث، لا تعني "بلغة عصــرنا إلا جمعانية، القراءة أو تعدديتها بحيث أن كل قراءة تمثل وجهة نظر معينة، فهذه قراءة نحوية، وتلك قراءة لغوية، وثالثة أســلوبية، وأخرى تنزع منزعا آخر... وهلم جرا"[23]، ليؤكد من جهة أخرى قائلا:" ثم إنَّ داخل القراءة النوعية الواحدة قد تتولَّج جملةٌ من القراءات كما يحدث في تأويل بيت من الشعر نحويا"[24].

كان هذا بشأن القراءة من حيث تَراكُبيتها المنهجية وتجانس آلياتها التحليلية، فماذا بشأن سبك المصطلح وتوليده وتأصيله في مشروع الدكتور عبد الملك مرتاض النقدي؟

3. إشكالية توليد المصطلح وتأصيله:

إن الوعي[25] المنهجي الأصيل والأفق المعرفي المنفتح، الذي واجه به الأستاذ الدكتور عبد المالك مرتاض إشكالية قراءة النصوص الأدبية، من حيث منهجية المقاربة وتقنياتها وآلياتها، هو نفسه الذي واجه به إشكالية السبك والضبط المصطلحي[26]، من حيث حدوده وآفاقه وإجراءاته التطبيقية وحدود هذا الإجراء، ومن ثمة التساؤل عن قابليته-المصطلح-للاندراج في حقل معرفي معين وخاص، أو إمكانية انتشاره خارج هذا الحقل وملامسة حقول معرفية أخرى قريبة أو بعيدة.

لقد وظَّف الباحث، بقصد التغلُّب على هذه الإشكالية وتجاوز عقباتها، مجمل ما حبلت به العربية من آليات اصطلاحية، كما استثمر معظم ما يمنحه المعطى الفيللوجي العربي من إمكانيات هائلة للتوليد المصطلحي، ك: الاشتقاق والنحت والتعريب والإحياء، وغيرها، بما في ذلك محاولاته المضنية لتذليل مشكلة السوابق واللواحق التي تفتقر إليها اللغة العربية في مقابل اللغات الأوروبية باعتبارها لغات إلصاقية، تعتمد بطبعها نظام السوابق واللواحق (Préfixes et suffixes) في تشكيل معظم كلماتها[27]، مراعيا في ذلك قوانين اللغة العربية ومحترما قواعدها في معظم الأحيان، وخارقا إياها في أحايين قليلة ولضرورة معرفية ودلالية بحتة، كالنسبة إلى الجمع (موضوعاتية، لسانياتي، مستوياتي،...)[28]، بالإضافة إلى اصطناعه تقنية النحت كآلية لتوليد المصطلحات، ولكنها في الغالب الأعم قليلة في دراساته، لما يشيع فيها من غرابة عن خصائص اللغة العربية وطرائق تركيبها، ومن أمثلة ذلك: (الركبرة الذي يقابل به المصطلح الأجنبي (*Syntagme*): ركب وعبر) و(الجدلغة: التجديد اللغوي المقابل للمصطلح الأجنبي (*Néologisme*)، و(البدعدة، وهو مصطلح منحوت من الفعلين: بدأ وعاد، ليقابل به المصطلح الأجنبي (*Récurrence*)، وهي مصطلحات نجدها متواترة بصفة خاصة في كتابه (النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ الصادر عام 1983 عن ديوان، المطبوعات الجامعية بالجزائر، و(شعرية القصيدة- قصيدة القراءة، الصادر عام 1994 عن دار المنتخب العربي، بيروت).

ونجد الباحث يستند في معظم ما ذهب إليه في هذا الاتجاه، إلى جملة من المعايير أهمها: المعيار المعجمي[29]، والمعيار الاشتقاقي[30]، والمعيار الفيللوجي[31]، ومعيار الشيوع[32]، بالإضافة إلى معيار الإحياء[33].

إن نزوع الباحث وإصراره الكبير على التغلب على إشكالية توليد المصطلح وضبطه وبالتالي تبيئه، جعله يصطنع كالعادة على الصعيد الدلالي- وفي حدود منطلقات وآفاق مشرعه النقدي المزواج بين التراث والحداثة- حقلين مصطلحين أساسين: أحدهما بلاغي قديم والآخر ألسني حديث، فيما حفلت دراساته المتعددة في أحيان أخرى بطائفة مصطلحية ثالثة لا تكاد تندرج في أي إطار منهجي معين[34].

ولئن كان الباحث قد تعامل مع الحقل الأول- البلاغي- تعاملا حياديا ظل فيه وفيا لمرجعية المصطلحات التي يوظفها أمينا لدلالاتها كما عُرفت في القاموس البلاغي القديم، فإنه وفي المقابل- وجريا وراء هاجس التأصيل والتأسيس- اختلف في طريقة تعامله مع الحقل الثاني- الألسني- "بين الوفاء للمرجع والحياد عن المدلول الأصلي والتوسع فيه وإسقاطه على المرجعية العربية التراثية"[35*].

كما كان يتردد في الآن نفسه بين حرصه على انتماء المفهوم المصطلحي إلى إطاره المنهجي، والحياد في أحايين أخرى قليلة عن هذا الحرص، من حيث نزوعه نحو تطعيم مصطلحات المناهج الألسنية المعاصرة (السيميائية والأسلوبية مثلا) بوحدات مصطلحية بلاغية (كالنسيج، والضرب وغيرها...)[36]. بالإضافة إلى هذا فإنه لم يكن ليُلزِم نفسه في أحيان أخرى ببعض المصطلحات التي كان يعلن مسبقا-سواء في العناوين أو في المقدمات المنهجية التي يصدر بها دراساته-أن قراءاته تندرج ضمنها، كما يشيع ذلك في بعض دراساته التفكيكية التي نجدها "فقيرة من حيث ما يشيع في الدراسة التفكيكية من مصطلحات خاصة كالاختلاف والأثر والمضاف ...."[37] وغيرها.

والحقُّ أن الدكتور عبد الملك مرتاض كان من أكثر النقاد العرب وعيا بأهمية المصطلح ومكانته داخل الخطاب النقدي، ومن أشدهم حرصا على تجذيره وتأصيله، وضبطه ومراجعته، سواء من حيث الحد أو من حيث المفهوم قبل الخوض في الممارسة والتطبيق. لأنه كان-فيما نعتقد-على وعي كبير بأن نواة المنهج ولبه هي المصطلح، وأن الفشل في ترجمته أو تعريبه عبر تأصيله وتأثيله، ضمن طرائق فيللوجية معروفة، هو فشل في مواجهة الخطاب الأدبي، وبالتالي المسار النقدي عموما. بالإضافة إلى هذا، فإن حرصه البالغ على الاهتمام بالمصطلح ومراجعته الدائمة والمستمرة عبر تصحيحه وتطويره[38*]، والاجتهاد في صياغة تحليلات موضوعية بشأنه، تكفل مقاربة نقدية صحيحة، وممارسة تطبيقية موفقة وسديدة، كان الدافع إليها ذلك الخلط وتلك الفوضى المصطلحية التي تعجُّ بها الساحة النقدية العربية الحديثة، نتيجة غياب تنسيق عربي جماعي موحد في هذا المجال[39].

ولعل أبلغ مظاهر التأسيس والتأصيل النقدي في مشروع الدكتور عبد الملك مرتاض، سواء في المنهج أو في المصطلح، هو أن معظم دراساته -كتبا ومقالات- تتصدرها مقدمات منهجية غاية في الدقة، تُوضِّح تصوُّره العام للإشكالية المطروحة وتستوفيها حقها من التأطير والدرس والتمحيص، والضبط والتدقيق والتخصيب كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

وختاما لا نملك إلا أن نقول، إن المتتبع للمسار النقدي للأستاذ عبد الملك مرتاض عبر مراحله المتعددة، وعبر مساراته المتداخلة، يدرك بيُسر أن الرؤية النقدية لديه سواء في منهجيتها أو في مصطلحيتها، مرَّت عبر مخاض عسيرَ تلاقَح فيه التراث العربي بالحداثة الغربية. إن هذه الرؤية وبتلك المواصفات الآنفة الذكر، هي محصلة طبيعية لثقافة مزدوجة مكينة-تراثية وحداثية-ووليدة تجارب عديدة في البحث المتواصل، والتحري الدائم، والتجريب

والتطوير والتعديل المستمر، وإعادة النظر فيما أُنجز بُغيةً إكساب طرائقه التحليلية حُجَّة قوية وبرهانا دامغا واستقصاء عميقا ينشد الاقتراب إلى نحول الكمال (ولو أن الكمال غير موجود في العلوم الإنسانية).

فمن هذه الخلفية التراثية العريقة، ومن هذه الآفاق الحداثية المنفتحة على الآخر، ووفق تلك المنطلقات المنهجية، أسَّس الدكتور عبد الملك مرتاض لمشروع رؤية نقدية جديدة تتغيَّ التأصيل فيما هي تروم الإبداع والتفرد والتجديد. ونعتقد أننا لن نكون مبالغين إن زعمنا أنها- هذه الرؤية/المشروع- تمثل قفزةً نوعية وإنجازًا مهما في الدراسات النقدية العربية الحديثة، سواء أمن حيث صرامتُها المنهجية، أم من حيث تماسكها الفكري وفعاليتها العلمية ووجاهة طروحاتها، أم من حيث تأصيلها النقدي وتبييئها المعرفي، ولغتها المقولية الواصفة، والتي تنضح نصاعة وفصاحة وإشراقا.

يقدم هذا المشروع الجاد، الذي حاولنا استكشاف بعض تخومه، وارتياد بعض تضاريسه، وملامسة بعض نتوءاته، والكشف عن بعض آلياته، نموذجا حيا على ذلك التفاعل الخصيب بين معرفة تراثية مُوغِلةٍ في العَراقة ونسقٍ حداثي جانح دوما إلى التطور والتجدد.

الإحالات:

1. نقصد بـ (الهاجس) ذلك القلق المعرفي والهم الحضاري الذي يتلبس التجربة النقدية ويوجه مسارها .

* نشير في هذا الصدد إلى أننا اعتمدنا في صياغة بعض أفكار هذه المقدمة المنهجية على دراسة مخطوطة أعدها الباحث المغربي (بشير قمري) حول الأستاذ الناقد (محمد مفتاح). لذلك وجب التنويه.

2. تجد الإشارة إلى أن قضية الأجناس الأدبية أصبح الآن غير معترف بها في ظل تلاشي الحدود بين جنس أدبي وآخر .
3. إن هذا التوجه الذي يجمع بين التراث العربي والحداثة الغربية ويقابل بينهما هو توجه سائد عند كثير من النقاد والمفكرين العرب المعاصرين ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: حامد أبو زيد في كثير من دراساته، ومحمد مفتاح في بعض الدراسات، ومحمد عابد الجابري والدكتور فايز الداية، وأحمد نعيم الكراعين وعاطف القاضي وغيرهم.....
4. ميتا نقدية على غرار (لغة اللغة Métalangage) نقصد بها: نقد النقد أو تلك اللغة الناقدة للنقد، أو بعبارة أخرى ، وكما يصطنع الباحث نفسه، القراءة، وقراءة القراءة (Méta-lecture)وقراءة-قراءة القراءة(Méta-Méta lecture) أنظر مقاله: القراءة والقراءة خوض في إشكالية المفهوم، مجلة(علامات)، جدة ج 15،م04 مارس 1995 ، ص 212 وما بعدها .
5. عبد المالك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري (النص من حيث هو حقل للقراءة)، علامات ج 5،م2 ربيع الأول 1413 هـ سبتمبر 1992م.ص 146 .
6. التشديد منَّا.
7. المرجع نفسه ص.146،146
8. المرجع السابق، ،ص 147 .
9. (10)-(11)-(12)- المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

13. أنظر على سبيل المثال مقالتيه: (نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي) و (بين السمة والسيميائية)، في مجلة تجليات الحداثة، على التوالي ع1، 1992، وع 2يونيو 1993 جامعة وهران، معهد اللغة العربية وآدابها ،الجزائر، وغيرها من المقالات الأخرى في بعض الدوريات العربية .

14. (15)-(16)-(17)-(18) عبد المالك مرتاض التحليل السيميائي للخطاب الشعري، المرجع المذكور سابقا، ص145 .

19. من قبيل: دراساته:

– أ.ي. دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة الصادر عام1992 عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر .

– ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية جمال بغداد، الصادر عام 1993 عن ديوان المطبوعات، الجامعية الجزائر.

– تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية" زقاق المدق"، الصادر عام 1995 عن ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر)، وغيرها من الكتب الأخرى الشبيهة والمتبنية لهذا المنهج المركب .

20. ينظر: عبد المالك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، المرجع المذكور سابقا،ص145 .

21. المرجع نفسه،،ص 144 ،145 .

22. ينظر : المرجع السابق،،ص 145 .

23. المرجع السابق نفسه،،الصفحة نفسها، وانظر أيضا: محمد آل ياسين، تحقيق شرح مشكل أبيات المتنبي لابن سيده، المقدمة، نشر وزارة الإعلام، بغداد 1977 .

24. المرجع نفسه، ص145، 146 .

25. المرجع السابق، ص149

26. يُعد الوعي بحسب تعريف برغسون له وسيلة حياته، وقدرة على الإفلات من الحاضر.. أي يمثل الذاكرة التي هي واعية من حيث هي حاضرة وماضية أيضا. أنظر: جان بول سارتر، التخيل، تر.د. نظمي لوقا، الهيئة المصرية للكتاب 1982، ص 43.

27. المصطلح النقدي، هو ضرب من ضروب التخصص في جانب معين من جوانب الحركة النقدية والأدبية، بالإضافة إلى كونه مظهرا حضاريا من مظاهر تطور الفكر الأدبي العام، وهو فضلا عن ذلك دلالة خاصة تنتقل بموجبها اللفظة من معناها العام إلى معناها الخاص، مما يكسبها صفة الاختصاص أو التخصص مع وضوح في المعنى ودقة في الدلالة وشمولية في الاستيعاب.

28. لكن من المقابل تمتلك اللغة العربية، وباعتبارها لغة اشتقاقية، قدرة كبيرة على الاستخدام الداخلي لمختلف العمليات الصرفية.

29. ينظر: يوسف وغليسي، إشكاليات المنهج والمصطلح في تجربة (عبد الملك مرتاض)، مخطوط رسالة ماجستير، مقدمة إلى جامعة قسنطينة سنة 1995، 1996، ص 312 وما بعدها.

30. المعيار المعجمي ويعني تلك العملية التي تقف من خلالها على دلالة المصطلح وجذوره في المعاجم والغربية القديمة منها والحديثة على السواء.

31. المعيار الاشتقاقي باعتباره وسيلة فعالة من وسائل نمو اللغة وتوالد مولدها، وتناسل وتكاثر كلماتها، الأمر الذي يعطيها غنى وثراء يمكنها من التعبير عن المستحدث والجديد من أفكار ووسائل حياة.

32. المعيار الفيللوجي، والذي من خلاله نستطيع تتبع مدى ملاءمة وامتثال المصطلح لخصوصيات لغة ما، ومدى فصاحته، وخضوعه لطرائق الوضع اللغوي كما يثبتها درس فقه اللغة.

33. معيار الشيوع: ونعني به مدى شيوع المصطلح وهيمنته على الساحة النقدية من حيث التداول والاستعمال.

34. معيار الإحياء: ونعني به إحياء بعض المصطلحات التراثية القديمة وإكسابها صبغة حداثية، لتغدو ملائمة لبعض إجراءات التحديث المنهجي.

35. ينظر: يوسف وغيلسي، إشكاليات المنهج والمصطلح في تجربة (عبد الملك مرتاض) النقدية، مرجع مذكور سابقا، ص 313.

(*). التشديد ما.

36. وهذا جريا وراء التركيب المنهجي المشار إليه أعلاه، وتحللا من الجمود المنهجي والتعصب النقدي، لإيمانه المطلق باستحالة مواجهة أو مقاربة جنس أدبي دوما منهج ثابت ورؤية أحادية، حيث نجده يقول:" من الخير أن نأتي ذلك فنجمد هذا الجنس الأدبي المتميز نجرد حب التطلع إلى تأسيس ذلك المنهج المنشود"، ينظر كتابه: تحليل الخطاب السردي (م،س)، ص 3، وينظر أيضا: يوسف وغليسى، المرجع المذكور سابقا، ص 313

37. ينظر على سبيل المثال مقالتيه (نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي)، و(بين السمة السيميائية)، تجليات الحداثة، ع1، 1992، ع2، يونيو 1993، على التوالي، جامعة وهران، معهد اللغة العربية وأدائها الجزائر.

38. يوسف غليسى، المرجع المذكور سابقا، ص 314.

*هناك الكثير من المصطلحات التي ترجمها أو عربها في مرحلة سابقة مثل (الخطاب، الإشارة، العلامة، الأيقونة) ثم عاد وتخلى عنها لحساب تسميات أخرى، لمزيد من التفصيل أنظر تحليل الخطاب السردي، وغيرها من المقالات المنشورة في بعض الدوريات العربية.

39. هناك مظاهر كثيرة لهذا الخلط كالترجمات العربية المختلفة للمصطلح الأجنبي الواحد، أو كالتسميات الواحدة لمصطلحات أجنبية مختلفة، لمزيد من التفصيل في هذا المجال أنظر بعض الدراسات والمعاجم المشيرة إلى ذلك والتي حاولت تقويم هذا الاعوجاج ومعالجة هذا الخلط، وهي كثيرة ومتعددة، ومنها على سبيل المثال:

- محمد حلمي هليل، دراسة تقويمية لحصيلة المصطلح اللساني في الوطن العربي، ضمن وثيقة (تقدم اللسانيات في الوطن العربي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991.
- عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1984.
- سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، الدار التونسية للنشر ديوان المطبوعات الجامعية، تونس، الجزائر، د.ت.
- رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دبر الحكمة، الجزائر،2000.